قصة

العدد

مصرع بلبل

بقلم الاستاذ : محمود محمد الحبيب

الوقت فجر والنسيم خايل ، يتلاعب بالخواطر ويستحوذ على العواطف ، وانا منهمك بتشذيب شجيرات الورد جاد في رفع بقايا الاوراق اليابسة من الساقية التي تستقي الماء من جدول منساب كاحلام عذراء .

وكنت قرب نخلة قد اعتلاها بلبل يضربه بنغم جميل ، انتبهت اليه بغبطة ، وأنا أرمق مياه الجدول المتسارعة .

هي دقائق تلاشت بين ترنيم ملك ، وهبة نسيم بليله ثم سكن كل شيء .. التفت الى أريكة بلبلي الشادي فلم اراعني إلا هبوطه على غصن كرمة مندى ، وعلى إثره بلبل صغير الجسم ، ضعيف القوادم يجاهد لتكييف جسمه على الطيران حتى تمكن من الهبوط على احدى الفروع الصغيرة فلم تتحمل هبوطه المفاجيء ومالت به ، فاذا بالبلبل على وجه الماء .

لست أدري كنه هذا الاحساس المفاجيء الذي دب في أعماقي وجعلني أرتمي في الماء وأخوضه حتى جعلت راحة كفي تحت جسم ذلك العصفور ، فرفعته وعدت به نحو الشاطيء وهو يختلج بين أصابعي ويرتجف ، ولمحت سنوراً أسود اللون يتحين الفرص للاجهاز على الفريسة الضعيفة ، فرميته بحجر ، فاطلق أربعته المريح ، ثم أقعى خلف شجرة توت هرمة .

كان للبلبل صادراً لا يأتي بحركة فخفت من ضغطي عليه ، بيد أنه حاول الافلات ، فحلت دون حريته ، ولم يكن ذلك إلا خوف عليه من السنور الذي يتربص به الدوائر ، ففكرت في تربيته ليشنف اسماعي ما اطل الفجر وبارز النور .

يومان قد مرا ، وبلبلي الصغير قد لبس الحزن ، وتسربل بالصمت ، ولم يغرد جاسته في خلالها . فقد ارتقى من ذلك القفص الجميل زاوية قبع فيها بدون حراك عدا الانظار الحائرة وهي تتراسل صوب الفضاء البعيد . فكنت أتألم لاضرابه عن الطعام ، وهذا الصمت الذي حبس عني أغاريده المشتهاة .

أما هو فانكمش على نفسه ، ولم يول اهتماما الى العصافير المحومة حول القفص ، وقد تعالت زقزقتها تصم الآذان وتبعث الضجيج ، كل ذلك للوصول الى طعامه الذي زهد عنه .

حاولت مراراً أن أطعمه ، ولكنه تابلي بالباء وعناد فاضطررت الى استعمال بعض الشدة في فتح منقاره لعب فتات الخبز في فيه ، وانا منقبض النفس لهذه المكابرة التي يبديها بوعلى هذا العزوف .

عولت في النهاية على منحه (الحرية) واعادته الى وكنه مهما كلفني ذلك من عناء ، وقررت أن يكون ذلك في صبيحة الغد ، فالظلام قد مد رواقه وفي عتمة كهذه لا اهتدي الى سبيل ..

بدأت أفكر ، وأنا مستلق على فراشي عما سيلاقيه هذا (الاسير) من غبطة حين أخرجه من ذلك « القفص » الضيق المحدود لارسله حراً طليقاً الى أحضان الطبيعة حيث يعيش هانئاً ويغني لحن السحر مع رفقته على ضفاف الانهار وفي ظلال الخمائل . .

كان أول ما نبهني من رقادي اغرودة بلبل ، ترف رفيف الافحوان وتمتزج مع أنفاس الفجر الندية فتوسمت فيها صوت بلبلي ، فاخذت أتساءل ، هل هو يستقبل أطياف النور المنبعثة حواليه من خلال قضبان القفص أم يلقي مقطوعة الوداع للعصافير المحومة حول الدار ؟

نهضت كي أقع على الجواب الشافي ووجهي الى البلبل الصغير .... أجلت النظر في زوايا القفص ، فاذا الدار تنعى من بناها ، وأشباح الوحشة تطوف حوله وتملأ الجو بالنحيب ..

لقد لحت بلبلي ... يا بلبلي الصغير متوسداً قفصه وقد أسلم الروح . أي منظر على الرغم من بساطته قد احتجب عن عيني وراء سحابة من المدامع ، وغزا فؤادي بفيض من الحسرات ؟ أهو جثمان عزيز سلب الفكر ، أم رفات قريب يربطني به وشائج النسب وآصرة القربى ؟

ولكن .. كلا .. ليس هذا ولا ذاك .. وانما هو صفحة ناصعة ، وتأريخ محب أحب فمات في سبيل هواه .

ايه أيها البلبل ...

يامن ستنهال أصفاد عبوديتك ، وتنهار هذه القضبان امام ألحاظك ، وأنت قريب من حريتك قاب قوسين أو أدنى ، هلا تريثت روحك المعذبة ساعة واحدة لتنطلق الى فضاء لا متناهي ، الى حرية شاملة وعيش طلق ؟

لقد مت ، وأنت مكبود ، وربما جائع وحاد ، وتعالت روحك منسلة من بين قضبان لم تتسع فيما لجسمك الصغير وأنت منفرد وحيد .

أي ميتة صامتة اخترتها لنفسك ، وأنت منقطع عن ذويك وبعيد عن مهد صباك ومسقط رأسك ، لا النخيل ولا السجر ، ولا الجدول المنساب يسترعي النظر ، إلا من جدران قاتمة تهزأ لوحدتك ، وتبتسم لحلوتك .

لقد تعذبت يافتيدي وشقيت ، وذقت الأمرين فقدان حريتك ، وسلوك عن شراب بارد ، وطعام سائغ فابكيت عيني ، وفجعتني ، لأن مرآك في هذه الساعة وأنت هامد الجسم ، يبعث في كوامن الألم ... وكيف لا يتفجر قلبي عن أحزان ، وتظهر في افق بارقات الشجون ، وأنا الذي انتشلتك من اليم ساعة الضيق ، فما لي واحسرتاه عليك يافتيدة السلوى قد تركت تصارع الموت وحيداً بينما انا غريق أحلام هانئة على فراش وثير .

ها هي عرائش الكروم وأشجار التوت قد نضجت أثمارها ، وزفيف الريح تلاعب أغصان الخمائل الخضراء الناعسة ، وتمسح عن أكمام الورد قطرات الطل ، وعصابات الطير تشدو على مسارح الطبيعة الضاحكة وتتطاير فوق الاشجار ، فأين أنت من هذه الصور المشرقة ؟

أين من عينيك أنوار الصباح تتراسل على المرابع الفاتنة وتباشير النسيم تصافح الجداول والبرك ، وتأرجح أعناب الكروم المدلاة يميناً وشمالا ؟

أين روحك المتوثبة ترتهش ، فالصبح قد أقبل ؟

يا عصفور الاحزان .. يا غصنا ذوى قبل أن تمسه اكف الربيع ، لعل أباك قد تناساك وآوى الى عشه ليعيد دورة كاملة قد انتفضت عن حلقة مفقودة ، وسيكون في وليد جديد ما يزيح عنه الاحزان .. ولكن هل بمقدوري أنا الذي استخصلتك من براثن القدر أن أفعل كما فعل أبوك فأتناساك ؟

كلا يا بلبلي العزيز ، فقد أحاول المستحيل ، فهذا القفص وتلك النخلة وهاتيك الجداول ومسارب المياه كلها تذكرني بك ...

يا بلبلي الحزين . يا شهيد الألم والحرية المفقودة ، لقد سكنت فسكنت في باطنك الهموم وتلاشت أشباح الذكرى أما أنا فسأبقى نريب الشجون فلا من نسيان ولا سلوى .

البصرة — محمود محمد الحبيب

البيان العدد ٦٧ و ٦٨ — التاريخ ١٠ / ٧ / ٤٩

اعلان

تبيع دائرة اجراء كربلا ماكينة الطحين من نوع بلوكي ذات قوة ٢٨ حصان من الطاحونة ٢٤ انج والهابنة المنصوبة في قرية النص المائذة للمدين حميد عبد النبي المحجوزة لقاء طلب الدائن الياهو روفائيل البالغ ٥١٠ / ٤١٢ دينار وذلك في اليوم الخميس المصادف يوم واحد وعشرين من شهر تموز ٩٤٩ في الساعة الرابعة زوالية بعد الظهر في القرية المذكورة الكائنة بين كربلا والنجف فكل من له رغبة في الشراء فليراجع الى المحل وفي الوقت المذكور .

مامور الاجراء